نشأة العلمانية وموقف الإسلام منها

اعداد
د/علي أحمد رمضان

Doi:10.33850/ajahs.2020.68019
الاستلام : ٢٥ / ١١ /٢٠١٩ القبول : ٢٨ / ١٢ /٢٠١٩

المستخلص:

تهدف هذه الدراسة إلى أن العلمانية ليس لها شكل محدد أو نظام واضح. فهناك علمانية الغرب، وعلمانية الاشتراكية والعلمانية الشيوعية. وكلها تتفق على أمر واحد وهو التنازل عن الدين بقيمه وأخلاقه واتباع أسس جديدة من وضع البشر تتغير مع الزمن في مزيد من التنازل عن الأخلاق، ومزيد من التنازل عن القيم في سبيل المادة التي لن تحقق اسعاد البشر في الدنا والآخرة. فتحت تأثير العلمانية ضاع التسامح الديني وشاعت سيطرة الطائفية. هذه هي قصة العلمانية رد فعل خاطئ لدين محرف وأوضاع خاطئة، ونبات خرج من تربة خبيثة ونتاج سيئ لظروف غير طبيعية... ولا شك أنه كان من المفترض على أوربا التي ابتليت بهذا الدين المحرف أن تبحث عن الدين الصحيح ولا تكون مجتمعاً لا دينياً.

Abstract:

The aim of this study is that secularism has no definite form or system. There is secularism of the West, secularism of socialism and communist secularism. All agree on one thing: to give up religion in its values and morals, and to follow new foundations of the human condition that change over time in the further abdication of morality, and more abdication of values for the sake of matter that will not bring human happiness in DNA and the Hereafter. Under the influence of secularism, religious tolerance was lost and sectarian domination prevailed. This is the story of secularism, the wrong reaction to a misrepresented religion and wrong conditions, a plant that emerged from malicious soil and a bad product of abnormal circumstances.

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد،،،

فلكل دولة طابع يميزها عن غيرها نتيجة التجارب التاريخية الخاصة التي انبثقت من الظروف الاجتماعية والاقتصادية والثقافية الخاصة بالمجتمع.

والغرب له طابعه الخاص الذي يختلف عن الطابع العام للشرق. فعلى سبيل المثال ارتبط تقدم الغرب بفصل الدين عن الدولة، بينما ارتبط تقدم الشرق بقوة الدين، وإن كان هناك اختلاف بين طبيعة تقدم كل منهما، من تقدم مادي في الغرب إلى تقدم مادي وروحي في الشرق إبان الحضارة الإسلامية. والمنهج الذي اتبعه الغرب في التقدم والتحضر جوهره العلمانية. وهذا التقدم الذي كان ثمرة عدة قرون من التنوير والنهوض، جعل الكثير من مفكري العالم الإسلامي يتأثرون بدرجة كبيرة مع مفكري أوروبا في المنهج الذي اتبعوه للنهوض ببلادهم.

أولاً: تعريف العلمانية.

تعريف العلمانية:

يعد مفهوم العلمانية من أكثر المفاهيم خلافية منذ نشأته حيث يقدم كل مفكر تعريفاً مختلفاً للعلمانية حسب رؤيته وموقفه منها وحسب الحقبة التاريخية التي يمثلها كل مفكر.

أ- التعريف اللغوي للعلمانية:

إن كلمة علمانية بالعربية هي ترجمة لنظيرتها الإنجليزية secularism وأصلها اللغوي secular وهي مشتقة من كلمة لاتينية في العصور الوسطى saeculum والتي تعني الجيل أو العصر أو الزمن، كما استخدمت في اللاتينية المسيحية للإشارة إلى العالم في مقابل الكنيسة[1].

ويمكن التمييز هنا بين الترجمة العلمانية لنظيرتها الإنجليزية secularism ونظيرتها الفرنسية laicite، فالعلمانية في اللغة العربية ترجمة للمصطلحين في الإنجليزية والفرنسية في نفس الوقت، لكن العلمانية الإنجليزية أقل حدة من نظريتها الفرنسية. فالعلمانية الإنجليزية تعني (الزمانية) أي: الاهتمام بهذا الزمن لتحقيق الرفاهية كما عرفها "جورج هوليوك" (١٨١٧-١٩٠٦م)، بينما العلمانية الفرنسية تعني (اللادينية)؛ حيث ممارسة أي طقوس أو مظاهر دينية في المجال العام الفرنسي محظور. ويمكن التفرقة بين العلمانيتين الإنجليزية والفرنسية بنفس المعيار الذي

[1] انظر: د. مي سمير عبده متولي. العلمانية في الفكر العربي والإسلامي المعاصر. المكتب العربي للمعارف. ط١. القاهرة ٢٠١٣م. ص١٢، ١٣.

وضعه المسيري بتقسيم العلمانية إلى جزئية وشاملة. فالعلمانية الإنجليزية جزئية، والعلمانية الفرنسية شاملة[٢].

وقد عرفت الموسوعة البريطانية كلمة secular على أنها: ما يتعلق بما هو دنيوي أو زماني أو ما ليس ديني مثل الموسيقى أو ما ليس كهنوتي التنظيم مثل المحاكم. غير محكوم بالاعتبارات أو القواعد الرهبانية الخاصة.

ويعرف قاموس (وبستر العلمانية) secularism على أنها: اللامبالاة أو الرفض أو الاستبعاد للاعتبارات الدينية.

وأما قاموس أكسفورد فقد عرف العلمانية secularism على أنها: العقيدة التي تؤمن بأن الدين يجب ألا ينغمس في مؤسسات الدولة أو مؤسسات التعليم وغيرها من المؤسسات العامة.

كذلك عرف قاموس (كامبريدج) العلماني secular بأنه ما ليس له علاقة بالدين[٣].

ب- التعريف الاصطلاحي للعلمانية:

إن المفكر البريطاني (جورج هوليوك) هو أول من أطلق مصطلح العلمانية في الغرب وذلك عام ١٨٥١م حيث عرف (هوليوك) العلمانية أنها: تحقيق رفاهية وسعادة الإنسان في هذه الحياة الدنيا عن طريق وسائل مادية؛ مثل: التقدم العلمي، مع التأكيد على أن العلمانية لا تعادي الدين ولكنها نظرة لهذا العالم المحسوس والواقعي مستقلة عن الدين وعن أي حياة أخرى لا يمكن التأكد من وجودها من عدمه[٤].

ولقد عرفت لغتنا العربية أول ترجمة لمصطلح (العلمانية) في معجم عربي فرنسي، كان أثراً من آثار الحملة الفرنسية على مصر.. فواضعه - لويس بقطر المصري - كان من الذين رحلوا إلى فرنسا مع جيش الحملة الفرنسية المنهزم، ودرس هناك العامية المصرية.. وأصدر معجمه هذا سنة ١٨٢٨م.. وفيه ترجم الكلمة الفرنسية Laique بـ (علماني).. من العلم - نسبة إلى (العالم)، باعتباره (الدنيا) المقابلة (للدين)، للتعبير عن مذهب الوضعية الغربية الذي يقيم (ثنائية - التناقض) بين (الدين) وبين (العمران الدنيوي) [٥]. ثم استخدم المصطلح، بعد ذلك في العربية ترجمة للكلمة الإنجليزية Secularism.

---

[٢] انظر: المرجع السابق. ص١٤، ٢٢.

[٣] انظر: المرجع السابق. ص١٥.

[٤] انظر: د. مي سمير عبده متولي. العلمانية في الفكر العربي والإسلامي المعاصر. ص١٦.

[٥] انظر: د. السيد أحمد محمد فرج. (علماني وعلمانية، تأصيل معجمي). مجلة (الحوار) عدد ٢. سنة ١٩٨٦م. ص١٠١-١١٠.

أن العلمانية هي جملة من التحولات التاريخية السياسية والاجتماعية والثقافية والفكرية والأيديولوجية، وأنها تندرج في أطرأ وأوسع من تضاد الدين والدنيا، بل إنها تابعة لتحولات سابقة عليها في مجالات الحياة المختلفة. وهذه العلمانية لها وجوه منها، وجهاً معرفياً ويتمثل في نفي الأسباب الخارجة على الظواهر الطبيعية أو التاريخية، وفي تأكيد تحول التاريخ دون كلل. ووجهاً مؤسسياً يتمثل في اعتبار المؤسسة الدينية مؤسسة خاصة كالأندية والمحافل. ووجهاً سياسياً يتمثل في عزل الدين عن السياسة. ووجهاً أخلاقياً وقيمياً يربط الأخلاق بالتاريخ والوازع بالضمير بدل الإلزام والترهيب بعقاب الآخرة. ولكل من هذه أشكال ومناسبات مع وقائع التاريخ المحيطة بها[٦].

فالعلمانية لا تستبعد الإرشاد والتوجيه الديني للأفراد، وتستأثر بهذا الدور لنفسها، ولكنها تقوم بهذا الدور على صعيد الحياة القائمة وتحقيق الرفاهية فيها للإنسان[٧].

- وأخذت العلمانية في الغرب الحديث عدة معان: ففي القرنين السابع عشر والثامن عشر تعني (فصل الدين عن الدولة). وفي القرن التاسع عشر تحولت إلى (إبعاد الدين عن الدولة). وجاء القرن العشرين ليخفف قليلاً من موقف الدولة والأفراد تجاه الدين[٨]، ويتمثل هذا التغير الطفيف في عودة السلطة الزمنية للكنيسة الكاثوليكية في عام (١٩٢٥م)، بإعادة قيام دولة الفاتيكان كوحدة سياسية بعد أن أدمجت الولايات البابوية في مملكة إيطاليا منذ عام (١٨٧٠)، ويتمثل هذا التغير أيضاً في السماح بقيام الأهداف السياسية المسيحية في أكثر من دولة من دول الغرب[٩].

ومن خلال تعريفات العلمانية في المعاجم الغربية نجد أنها تتفق جميعاً على وجوب إخراج الدين من الصراع السياسي والاجتماعي بشكل عام، لكنها لا تتعرض للإيمان الفردي أو تعادي فكرة التدين، هي فقط تسعى إلى عدم انغماس الدين في الحياة العامة حتى لا يتعارض ولاء الفرد للدين مع ولاؤه للدولة، وحتى لا تحدث صراعات بين الأفراد المختلفين مذهبياً ودينياً في المجتمع، خاصة وأن المجتمع

---

[٦] انظر: د. عزيز العظمة. العلمانية من منظور مختلف. ط١. مركز دراسات الوحدة المربية. بيروت ١٩٩٢م. ص٣٧.

[٧] انظر: د. مي سمير عبده المتولي. العلمانية في الفكر العربي والإسلامي المعاصر. ص ١٦.

[٨] انظر: جون هرمان راندال. تكوين العقل الحديث. ترجمة: د. جورج طعمة. ج١. دار الثقافة - بيروت ١٩٦٥م.

[٩] انظر: تاريخ البشرية. المجلد السادس، ج٢. ترجمة: عثمان نويه وآخرين. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧١م. ص٢٩٥ وما بعدها.

الأوروبي شهد مجموعة من العوامل التي دفعت كثيرين للمطالبة بالعلمانية وإخراج الدين من الساحة الاجتماعية نهائياً[١٠].

والعلمانية كما يقول د/ فؤاد زكريا: إطار فضفاض شديد الاتساع، يمكن أن يحتوي في داخله على شتى أنواع المواقف السياسية والأيدولوجيات. فمن الممكن أن يكون هناك علماني يميني وعلماني يساري، وعلماني ليبرالي وعلماني ماركسي، وعلماني متدين وعلماني غير متدين. وهكذا فإن العلمانية لا تكشف لنا عن الطريق الذي ينبغي أن نسير فيه، وإنما تشير بوضوح إلى الطريق الذي ينبغي أن نتجنبه، ثم تترك لنا بعد ذلك حرية اختيار المسار[١١].

ويعرف العلمانية (شبلي العيسمي) بأنها: " هي جملة من التدابير جاءت وليدة الصراع الطويل بين السلطتين الدينية والدنيوية في أوروبا، واستهدفت فك الاشتباك بينهما، واعتماد فكرة الفصل بين الدين والدولة، بما يضمن حياد هذه تجاه الدين، أي دين، ويضمن حرية الرأي.. ويمنع رجال الدين عن إعطاء آرائهم.. صفة مقدسة[١٢].

- فالعلمانية هي بمثابة نقطة الانطلاق التي بدأ الفكر السياسي الأوربي منها إسهاماته الهامة فيما يتعلق بالدولة والفرد والمجتمع، وهي دعوة لتحرير كل من الدولة من سيطرة الكنيسة وتحرير الفكر الأوربي من الدوران في فلك دراسة العلاقة بين الدين والدولة مما جعله يضع نظريات سياسية أثرت في العالم كله، بالإضافة إلى بقاء واستقرار هذه النظريات قرون طويلة حتى شكلت العقيدة السياسية الغربية وأصبحت راسخة في الوجدان الأوربي[١٣].

يقول المستشرق (أريري) في كتابه (الدين في الشرق الأوسط) عن الكلمة نفسها: إن المادية العلمية والإنسانية والمذهب الطبيعي والوضعية كلها أشكال اللادينية، واللادينية صفة مميزة لأوروبا وأمريكا ومع أن مظاهرها موجودة في الشرق الأوسط فإنها لم تتخذ أي صبغة فلسفية أو أدبية محددة، والنموذج الرئيسي لها هو فصل الدين عن الدولة في الجمهورية التركية[١٤].

---

[١٠] انظر: المرجع السابق. ص١٥، ١٦.

[١١] انظر: د. فؤاد زكريا. الصحوة الإسلامية في ميزان العقل. ط١. دار الفكر للدراسات والنشر. القاهرة - باريس ١٩٨٩م . ص٨٠.

[١٢] انظر: د. شبلي العيسمي. العلمانية والدولة الدينية. دار الشؤون الثقافية العامة. بغداد ١٩٨٦م. ص ١٩.

[١٣] انظر: د. مي سمير عبده المتولي. العلمانية في الفكر العربي والإسلامي المعاصر. ص ٥٤.

[١٤] انظر: د. محمد مصطفى الشناوي، د. خالد إبراهيم حسب الله. المذاهب المادية جذورها وتطورها دراسة نقدية. ١٩٩٧م. ص١١١.

وباختصار: العلمانية تعني عزل الدين عن الحياة الاجتماعية للأفراد. وظهرت في المجتمع الأوربي كرد فعل مضاد لتسلط الكنيسة التي جمعت في يدها كل شؤن الحياة من سلطات تشريعية وتنفيذية وقضائية.

ثانياً: نشأة العلمانية.

نشأة العلمانية:

لقد كانت النهضة الأوربية في مجموعها رد فعل للكبت الواقع على الإنسان بفعل التصور الكنسي للدين والممارسة الكنسية له، وإذا كان الغالب على ردود الفعل هو الاندفاع لا التعقل ولا التبصر ولا الروية ولا الاتزان.. فقد اندفعت أوربا في نهضتها تنزع من طريقها كل معلم من المعالم الإلهية (سواء كانت إلهية حقاً أو مدعاة من قبل الكنيسة) وتضع مكانها معالم بشرية من صنع الإنسان. كما تنزع من طريقها كل ما يتصل بالآخرة لتضع بدلاً منه ما يتصل بالحياة الدنيا. بهذا أصبح الطابع المميز للفكر الأوربي منذ النهضة هو التمرد على الدين والتمرد على الله[١٥]. وكانت هذه هي بداية (العلمانية) بالتعريف الأوربي.

وعندما سار الإنسان الأوربي على الخط العلماني استمر في الهبوط وبحث عن مصدر آخر للقيم الإنسانية غير الدين. وعلى هذا يمكننا فهم فلسفة (أوجست كونت) من ناحية، وأفكار (جان جاك روسو) من ناحية أخرى. فكلاهما يجهد نفسه ليقول للذين يقفون مدافعين عن الدين: لقد وجدنا مصدراً آخر تنبع منه القيم الضرورية لحياة الإنسان غير الدين، وجدناه في (الطبيعة) وفي (النفس البشرية) [١٦].

وفي الوقت ذاته اتجه هذا (الفكر المتحرر) إلى عبادة الطبيعة بدلاً من عبادة الله، ونسبوا الخلق إليها بدلاً من الله. وفي نفس الوقت اتجه الفن إلى مناجاة الطبيعة بدلاً من مناجاة الله، وتأليهها بدلاً من تأليه الله، ومضى الزمن وجاءت الثورة الصناعية.. وجاء مزيد من إبعاد الدين عن الحياة حيث أحدثت الثورة الصناعية هزات عنيفة في حياة الناس وذلك بإخراج المرأة إلى العمل وإفساد أخلاقها وإفساد أخلاق الرجل معها، واستغلال قضية المساواة مع الرجل في الأجر لبث روح الصراع في نفس المرأة، وما نتج عن ذلك كله من تحطيم الأسرة، وتشريد الأطفال والفوضى الجنسية.. الخ ونسبوا ذلك إلى التطور الذي يهدم ما يشاء من القيم ويلغي ما يشاء[١٧].

- أسباب نشأة العلمانية في الغرب:

توجد عدة أسباب أدت إلى نشأة العلمانية في الغرب، وأهمها:

---

[١٥] انظر: محمد قطب. مذاهب فكرية معاصرة. دار الشروق. ط٦. ١٩٩٢م. ص ٤٥٨.

[١٦] انظر: نفس المرجع. ص ٤٦٠.

[١٧] انظر: المرجع السابق. ص ٤٦١، ٤٦٢.

١- أخطاء رجال الدين:

- الجمود الفكري المتمثل في الحجر على العقول. وذلك بالوقوف ضد كل إبداع فكري، وكل كشف علمي. يقول (روجيه جارودي) في تفسير عداء الكنيسة للعلم: "يمكن تعليل الركود العلمي في أوربا المسيحية بذلك الموقف الحذر من الطبيعة التي لا بد أن تصرف الإنسان عن التوجه إلى الله.... هذا هو (أوزيب) عالم اللاهوت ومطران القيصرية يتوجه إلى علماء الاسكندرية قائلاً " نحن لا نولي نشاطاتكم أدنى اهتمام بل نزدري تلك النشاطات التي لا طائل منها ونتوجه بعقولنا صوب اهتمامات أسمى وأرفع " وبعد عشرة قرون يؤكد القديس توما الأكويني هذه النظرية بقوله: "نحن نفضل الحد الأدنى من المعرفة بالأمور الدنيوية الفلسفية"[١٨].

ولقد توصل (جاليليو) إلى صنع التلسكوب واستخدمه، غير أن ذلك لم يلق اهتماماً يذكر من قبل الرجال الذين كانت لهم خطوة وكلمة مسموعة بين الناس، وكانت ردة فعلهم تنطوي على كراهية وسوء ظن عظيمين، ولقد توقع (جاليليو) نفسه ذلك وكان على علم أكيد بما سيجلبه عمله من حقد وعداوة. لقد رفض بعض الرجال الذين ذاع صيتهم بين الناس أن ينظروا من خلال التلسكوب. وراجع ما حدث لجاليليو وغيره من العلماء من عداء الكنيسة لهم[١٩].

- الحجر على القلوب المتمثل في تحريف المسيحية.... وذلك مثل صكوك الغفران، وقرارات الحرمان، ومحاكم التفتيش.

- عدم صلاحية الدين الكنسي للحياة أو عدم تحقيق العدالة المتمثل في ظلم رجال الدين. وذلك بتحالف الكنيسة مع الظالمين للشعب. واضطهاد الأقليات الطائفية، المتمثل في حروب الكاثوليك والبروتستانت، والمتمثل أيضاً في اضطهاد اليهود من قبل الدول الأوربية ككل، ومن يقظة الحركة اليهودية[٢٠]، وكان ذلك نتيجة لعدم صلاحية وقدرة منهج المسيحية (الدين الكنسي) في الحياة. فحاول رجال الدين عندهم تطبيق هذا المنهج وقيادة الدول بناء عليه. ولذا قام نوع من الحكم سمي بالحكم الثيوقراطي، والذي بمقتضاه يحكم الدولة رجال دين يدعون أنهم يحكمونها بناءً على أوامر ونواهي الدين غير المؤهل لذلك، لذا فلا بد أن يدعوا أنهم على اتصال بالسماء،

---

[١٨] انظر: روجيه جارودي. ما يعد به الإسلام. ترجمة: قصي أتاسي، ميشيل واكيم. ط٢. دار الوثبة. دمشق١٩٨٣م. ص ١٢١.

[١٩] انظر: ب داونز. كتب غيرت العالم. ترجمة: أمين سلامة. ١٩٧٧م. ص٢٢٣، د. توفيق الطويل. قصة الصراع بين الدين والفلسفة. دار النهضة العربية ١٩٧٩م. ص ١٧٩.

[٢٠] انظر: زكريا فايد. العلمانية النشأة والأثر في الشرق والغرب. الزهراء للإعلام العربي. ط١. ١٩٨٨م. ص ٧١.

وأن العلم اللدني في حوزتهم هم فقط، هم أصحابه وهم مطبقوه. وهكذا حكم هؤلاء الرجال أوربا لعدة قرون هي قرون العصور الوسطى، ساد فيها الظلام والانغلاق والتخلف أنحاء هذه القارة[٢١].

- ولو استعرضنا مثلاً كيف تطبق العدالة في المجتمع الإنجليزي، لوجدت أن هذا المجتمع حتى سنة (١٩٢٥م) لم تكن الأنثى هناك تأخذ شيء من تركة حتى ولو كان أبيها، وكانت ثروة من مات وله أبناء تعطى لابنه الأكبر ويحرم بما فيه الأبناء من ثروات أبيهم، وكذلك أيضاً لم يكن للزوجة حق في الميراث من زوجها وهو أيضاً لا يرث منها شيء. فانظر إلى هذا الجور والظلم في الوقت الذي تحرم فيه المسيحية الطلاق ومع ذلك فلا يرث الزوجان بعضهم من بعض. فانظر إلى الجور والظلم الذي كان سائد في هذا المجتمع. تجد الأبناء يحرمون من ثروات أبيهم ويستأثر بها أكبرهم ، والزوجة تعيش في ضياع بعد زوجها ولا تأخذ من ثروته شيء وكانوا يقولون في تحريم ما أوجبه الرب لا يقطعه العبد. وكذلك في هذا المجتمع المسيحي الإنجليزي يورثون الأصول فإذا مات الابن لا يرث أبوه منه شيء ولا أمه. ولك أن تتصور الأب بعد موت ابنه وكذلك الأم قد يكون كل منهما بلغ أرذل العمر لا يستطيع العمل ولا الكسب ومع ذلك فليس له حق في ثروة ابنه. إنه نوع من الجور والظلم وإهدار لعلاقة الأبوة وعدم النظر إلى المجهود الذي يبذله الأب في تربية أبنائه. ثم عدل هذا القانون ١٩٢٥م وأعطوا للأنثى نصيب وللأصول نصيب كما قرره الإسلام منذ أكثر من ألف عام[٢٢].

- وكذلك لو نظرنا إلى المجتمع الأمريكي إلى ما قبل سنة ١٩٣٠م كان الفرد من حقه أن يوصي بما له كله لمن شاء حتى ولو كان التي أوصى لها بالمال عشيقته ولا يجوز لأبنائه ولا لزوجته أن يأخذوا منه شيء ولم يكن القانون عندهم يمنع ذلك. أما الإسلام فلا يجوز للإنسان أن يوصي بأكثر من الثلث ولا يجوز أن يوصي لأحد الورثة حتى بالثلث إلا بموافقة جميع الورثة على ذلك حتى لا ينشأ بينهم الحقد والبغض. وانظر إلى هذه العدالة في الإسلام وقد أخذت أمريكا الآن بهذا القانون. ويطبق هذا القانون في أكثر من ثلاثين ولاية في أمريكا. والعالم الأمريكي (استون) له كتاب في المواريث يعلل في هذا الكتاب لماذا لا يورثون الآباء وتعليله يثير الضحك واسمعوا إلى تعليله فيقول: إن التركة تشبه الحجر، فالحجر يسقط إلى أسفل ولا يرتفع إلى أعلى فهكذا التركة تقسم على الفروع ولا تعطي للأصول. لقد أردت أن أذكر لكم هذه الأمثلة لكي أبين لكم أن المجتمعات الغربية المسيحية حينما تدعوا إلى العلمانية

---

[٢١] انظر: المرجع السابق. ص ١٣.

[٢٢] انظر: د. محمد أحمد العلمي. الخلق والإبداع بين الإلحاد والإيمان. ص ١٥٦، ١٥٧.

فإن ذلك رد فعل طبيعي لنقض العدالة عندهم وليس في قوانينهم وتشريعاتهم ما يكفل لهم تحقيق هذه العدالة[٢٣].

والخلاصة: أن الدين الكنسي لا يقيم وزناً للحياة. حيث لا يسعى إلى تحسين أحوال البشر على الأرض، أو إزالة المظالم السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تقع عليهم، وإنما يدعو إلى الزهد في الحياة الدنيا وترك كل شيء على ما هو عليه، لأن فترة الحياة الدنيا أقصر وأضل وزناً من أن يحاول الإنسان تعديل أوضاعه فيها. إنما يسعى جاهداً إلى الخلاص منها دون أن يعلق بروحه شيء من الآثام. والمتاع ذاته هو من الآثام التي يحاول المتطهرون النجاة منها بالرهبنة واعتزال الحياة.

بل أكثر من ذلك: إن احتمال المشقة في الحياة الدنيا، واحتمال ما يقع فيها من المظالم هو لون من التقرب إلى الله تعلى يساعد على الخلاص. ومن ثم دعت الكنيسة الفلاحين للرضا بالمظالم التي كانت تقع في ظل الإقطاع وعدم الثورة عليها لينالوا رضوان الله في الآخرة، وقالت لهم: " من خدم سيدين في الحياة الدنيا خير ممن خدم سيداً واحداً "[٢٤].

٢- التنازع على السلطة بين الدولة والكنيسة في القرنين السابع عشر والثامن عشر:

إن التنازع على السلطة بين الدولة والكنيسة في هذين القرنين أدى إلى الفصل بين السلطتين. وكان هو الحل الفلسفي أو الرسمي لهذا التنازع.

٣- إلغاء الثنائية[*]:

لقد تم إلغاء الثنائية في المجتمع الأوربى وذلك بهدم الدين كمقدمة ضرورية للوصول إلى الاستئثار بالسلطة المنفردة، التي هي سلطة (جماعة العمل) أو (المجتمع) أو (الدولة) أو (الحزب): حسب تحديد بعض اليساريين المتطرفين في مدرسة هيجل.

٤- التقدم العلمي التدريجي:

إن التقدم العلمي بالتدريج في أوربا منذ نهاية القرون الوسطى. هو الذي جرأ أرباب الفكر العلماني على الخروج على وصايا الكنيسة، وعلى الاستقلال في النشاط الإنساني، وحركة المجتمع عن أي رأي يصدر منها، وقالت لهم: "من خدم سيدين في الحياة الدنيا خير ممن خدم سيداً واحداً "[٢٥].

---

[٢٣] انظر: المرجع السابق. ص ١٥٧، ١٥٨.

[٢٤] انظر: محمد قطب. مذاهب فكرية معاصرة. ص ٤٥٥.

[*] كانت في القرن التاسع عشر، وقد بلغت قمتها في التطرف في الفكر (الماركسي والشيوعي).

[٢٥] انظر: د. محمد البهي. العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق. مجمع البحوث الإسلامية. ص٢٩.

ثالثاً: موقف الإسلام من العلمانية.

سيتضح لنا موقف الإسلام من العلمانية من خلال مايلي:

الرد على أسباب نشأة العلمانية:

١ـ الرد على سلطة الكنيسة (أخطاء رجال الدين): لقد حاولت النصرانية عبثاً تغيير الفطرة وإزالتها وجاءت بنظام لا تطيقه الفطرة الإنسانية ولا تسيغه، وحملت النفوس ما لا طاقة لها به فرغبت فيه كرد فعل ضد المادية الطاغية واحتملته كارهة[٢٦].

ـ هذه الرهبانية الوثنية كانت شراً على الإنسانية والمدنية. يقول (ليكي) في كتابه (تاريخ الأخلاق في أوروبا): زاد عدد الرهبان زيادة عظيمة، وعظم شأنهم واستفحل أمرهم واسترعوا الأنظار وشغلوا الناس، ولا يمكن الآن إحصاؤهم بالدقة. ولكن مما يلقي الضوء على كثرتهم وانتشار الحركة الرهبانية ما روي المؤرخون من أنه كان يجتمع أيام عيد الفصح خمسون ألف من الرهبان، وفي القرن الرابع المسيحي كان راهب واحد يشرف على خمسة آلاف راهب، وكان الراهب (سرابين) يرأس عشرة آلاف، وقد بلغ عددهم في نهاية القرن الرابع عدد أهل مصر.. وظل تعذيب الجسم مثلاً كاملاً في الدين والأخلاق إلى قرنين. وروي المؤرخون من ذلك عجائب، فحدثوا عن الراهب (مكاريوس) نام ستة أشهر في مستنقع ليقرص جسمه العاري ذباب سام، وكان يحمل دائماً قنطاراً من حديد، وكان صاحبه الراهب (يوسيبيس) يحمل نحو قنطارين من حديد وقد أقام ثلاثة أعوام في بئر نزح، وقد لبث الراهب (يوحن) ثلاثة سنين قائماً على رجل واحدة ولم ينم ولم يقعد طوال هذه المدة، فإذا تعب جداً أسند ظهره إلى صخرة، وكان بعض الرهبان لا يكتسون دائماً، وإنما يستترون بشعرهم الطويل ويمشون على أيديهم وأرجلهم كالأنعام، وكان أكثرهم يسكنون في مغارات السباع والآبار النازحة والمقابر، ويأكل كثير منهم الكلا والحشيش، وكانوا يعدون طهارة الجسم منافية لنقاء الروح ويتأثمون من غسل الأعضاء، وأزهد الناس عندهم وأتقاهم أبعدهم عن الطهارة وأوغلهم في النجاسات والدنس[٢٧].

ـ ولم تقدر النصرانية بإسرافها في الرهبانية والزهد ومكابرتها للفطرة والواقع أن تصلح مفاسد من أخلاق الناس وعوائدهم. فكانت حركة الفجور والإباحة وحركة الغلو في الزهد والرهبانية تسيران في البلاد النصرانية جنباً إلى جنب.

ـ وقد أدى هذا الغلو والتطرف إلى ـ تسرب الضعف والانحراف في المراكز الدينية حتى صارت تزاحم المراكز الدنيوية وربما تسبقها في فساد الأخلاق والدعارة

---

[٢٦] انظر: د. محمد التكريتي. نقد العلمانية. ط١. دار المنطلق. دبي ١٩٩٤م. ص٢٨.

[٢٧] انظر: الحسن الندوي. ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين. دار القرآن الكريم. بيروت ١٩٧٨م. ص٢٤٠.

والفجور.. وانحطت أخلاق البابوات انحطاطاً عظيماً واستحوذ عليهم الجشع وحب المال، حتى كانوا يبيعون المناصب والوظائف كالسلع وقد تباع بالمزاد العلني ويؤجرون أرض الجنة بالوثائق والصكوك وتذاكر الغفران، ويأذنون بنقض القانون، ويمنحون شهادات النجاة واجازات حل المحرمات والمحظورات كأوراق النقد وطوابع البريد، ويرتشون ويرابون[٢٨].

- أما الإسلام لم يأت برهبانية كتلك التي كانت مع المسيحية بعد تشويهها. بل إن الإسلام نهى عن الرهبانية واعتبرها سلوكاً شاذاً، ولم نسمع في التاريخ الإسلامي عن (راهب مسلم). قد يكون بعض المتصوفة ما رسوا شيئاً من ذلك ولكن حركة التصوف كانت طارئة على الإسلام وقد رفضها المجتمع المسلم وتصدى لها ولغيرها من حركات الابتداع والانحراف.

- والإسلام لم يحصر الدين بيد فئة معينة تتاجر به، وتثرى على حسابه، بل حرر الدين من أي واسطة، وجعل الصلة بين الإنسان وخالقه صلة مباشرة، تزداد متانة كلما ازداد العبد تقرباً من الله بالعبادة والطاعة. لذا فلا يوجد في الإسلام رجال دين، بل علماء ومتفقهون، تقتصر مهمتهم على شرح تعاليم الإسلام للجاهلين به وبأحكامه، وما عرف التاريخ عن هؤلاء العلماء إلا نصح الحاكم، ومساندة المظلوم ونشر العلم، وتهذيب النفوس[٢٩].

وكانوا ينتقدون الدولة ويعارضونها متى رأوا فيها ما يدعو إلى ذلك. ولكن تلك حجة للإسلام لا حجة عليه، إذ أنها ممارسة تمثل حرية الرأي وتعدديته، وهي بهذا تمثل ديموقراطية لم تكن تعرفها أوربا قبل عصر النهضة، والذي يوجد عندنا هو الأزهر وهو جامعة علمية للدراسات الشرعية تطورت لتضم دراسات أخرى، وهي بهذا جامعة كأي جامعة أخرى. هذا إضافة إلى أنها عندما كانت مستقلة أدت دوراً مشهوداً في مقاومة الاستعمار ومناهضته. والسبب الثاني أن الأزهر أصبح مؤسسة خاضعة للدولة حتى في الناحية السياسية. أفلم تجبر السلطة الأزهر على أن يصدر فتوى بتأييد اتفاقية السلام مع إسرائيل؟ فالأزهر ليس منافساً للسلطة السياسية[٣٠].

٢ - عداء الكنيسة للعلم:

وبعد بزوغ العقل في أوربا وحطم علماء الطبيعة والعلوم سلاسل التقليد الديني وأعلنوا اكتشافاتهم العملية واختباراتهم، فقامت قيامة الكنيسة، وقام رجالها المتصرفون بزمام الأمور في أوربا وكفروهم واستحلوا دمائهم وأموالهم في سبيل

---

[٢٨] انظر: المصدر السابق. ص٢٤٤- ٢٤٦.

[٢٩] انظر: محمد الحسن. المذاهب والأفكار المعاصرة في التصور الإسلامي. ط٣. دار البشير للثقافة والعلوم الإسلامية. ١٩٩٠م. ص٢٧٥.

[٣٠] انظر: د. محمد التكريتي. نقد العلمانية. ص٣٣.

الدين المسيحي، وأنشأوا محاكم التفتيش التي تعاقب - كما يقول البابا - أولئك الملحدين والزنادقة الذين هم منتشرون في المدن وفي البيوت والغابات والمغارات والحقول. ويقدر أن من عاقبت هذه المحاكم يبلغ عددهم ثلاثمائة ألف، أحرق منهم اثنان وثلاثون ألفاً أحياء كان منهم العالم الطبيعي المعروف (برونو) إذا حكمت عليه بالقتل، واقترحت بأن لا تراق قطرة من دمه، وكان ذلك يعني أن يحرق حياً، وكذلك كان. وكذلك عوقب العالم الطبيعي الشهير (غاليلو) لأنه كان يعتقد بدوران الأرض حول الشمس.

هناك ثار المجددون المتنورون وعيل صبرهم، وأصبحوا حرباً على رجال الدين وممثلي الكنيسة والمحافظين على القديم، ومقتوا كل ما يتصل بهم ويعزي إليهم من عقيدة وثقافة وعلم وأخلاق وآداب، وعادوا الدين المسيحي أولاً، والدين المطلق ثانياً. استحالت الحروب بين زعماء العلم والعقل. وزعماء الدين المسيحي، حرباً بين العلم والدين مطلقاً، وقرر الثائرون أن القلم والدين ضرتان لا تتصالحان، وأن العقل والنظام الديني ضدان لا يجتمعان، فمن استقبل أحدهما استدبر الآخر، ومن آمن بالأول كفر بالثاني، وإذا ذكروا الدين ذكروا تلك الدماء الزكية التي أريقت في سبيل العلم والتحقيق، وتلك النفوس البريئة التي ذهبت ضحية لقسوة القساوسة ووساوسهم[٣١].

وهكذا حصل الطلاق النهائي والانفصام الأبدي بين الديانة المسيحية من جهة وبين الحياة السياسية والفكرية والعلمية من جهة أخرى.

- لقد شجع الإسلام العلم والعلماء، بل جعل طلب العلم فريضة على كل مسلم. يقول العلامة (مسمر): " إن الغربي لا يصير عالماً إلا إذا ترك دينه، بخلاف المسلم فإنه لا يترك دينه إلا إذا صار جاهلاً "[٣٢].

وتقول الباحثة الإيطالية المعاصرة (لورا فيشيا فاغليري)، في نهاية دراسة لها حول الإسلام: "إن دينا يتخذ من التأمل العقلاني أساساً له، ويفسح هذا المجال العريض للعقل، ويأمر باصطناع جميع الملكات التي وهبها الله للإنسان، وبالتالي اصطناع تلك الملكة التي تعد أعظمها على الإطلاق، وهي ملكة الذكاء، مثل هذا الدين، كيف يمكن أن يكون عقبة في طريق العلم والفلسفة"[٣٣].

---

[٣١] انظر: د. محمد التكريتي. نقد العلمانية. ط١. دار المنطلق. دبي ١٩٩٤م. ص٢٨، ٣٠.

[٣٢] انظر: إبراهيم النعمة. المسلمون أما تحديات الغزو الفكري. مطبعة الزهراء الحديثة. ١٩٨٦م. ص٥٢.

[٣٣] انظر: محمد أسد. دفاع عن الإسلام. ترجمة: منير البعلبكي. ط٢. دار العلم للملايين. بيروت١٩٩٢م. ص١٧.

إنه لم يكن الإسلام في يوم من الأيام ضد العلم والعلماء، بل على العكس، كانت آيات القرآن تحث المسلمين على العلم والتفكير والتعقل والتدبر، ولم توجد حقيقة دينية إسلامية تعارض حقيقة علمية ثابتة، هذا إذا تركنا جانباً ما يراه البعض من آيات قرآنية تدل على حقائق علمية كبيرة، حتى أن كثيراً من الغربيين اعتنق الإسلام بسبب ما رآه من آيات تدل على قوانين وحقائق علمية اكتشفها العلم الحديث مؤخراً. فمثلاً لذلك، الطبيب الفرنسي (موريس بوكاي) الذي ألف كتاباً يقارن فيه ما جاء في القرآن الكريم بما قرأه في الإنجيل والعهد القديم، على ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة. إذ يقول في كتابه (دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة): وعلينا أن نتذكر أن في عصر عظمة الإسلام، أي في القرن الثاني عشر من العصر المسيحي، وعلى حين كانت تفرض القيود على التطور العلمي في بلداننا المسيحية، أنجزت كمية عظيمة من الأبحاث والمكتشفات بالجامعات الإسلامية.. ولكم نحن مدينون للثقافة العربية في الرياضيات (فالجبر العربي) وعلم الفلك والفيزياء (البصريات) والجيولوجيا وعلم النبات والطب (ابن سينا) إلى غير ذلك. لقد اتخذ العلم لأول مرة صفة العالمية في جامعات العصر الوسيط الإسلامية، في ذلك العصر كان الناس أكثر تأثيراً بالروح الدينية، مما هم عليه في عصرنا.. ولكن ذلك لم يمنعهم من أن يكونوا في آن واحد مؤمنين وعلماء. وكأن العلم الأخ التوأم للدين. لكم كان ينبغي على العلم إلا يكف عن أن يكون كذلك[٣٤].

كانت البلاد المسيحية. في تلك الفترة من القرون الوسطى، في ركود وتزمت مطلق. توقف البحث العلمي، ليس بسبب التوراة والإنجيل، وإنما علينا أن نكرر ذلك، بأيدي هؤلاء الذين كانوا يدعون أنهم خدام التوراة والإنجيل. وبعد عصر نهضة أوربا كان رد الفعل الطبيعي أن يأخذ العلماء بثأرهم من منافسي الأمس، وهذا الثأر مستمر حتى اليوم.. وكلما تقدمنا في امتلاك العلم، وخاصة فيما يتعلق بكل ما هو متناه في الصغر، ازدادت الحجج القائلة بوجود الخالق بلاغة[٣٥].

ثم إن التاريخ الإسلامي، وحينما كان يحكم الإسلام، أنجب أعظم العلماء في مختلف مجالات العلم في الطب والفيزياء والكيمياء والرياضيات وعلوم الفلك وغيرها. فهل سمعنا أو قرأنا عن شيء اسمه (تعارض العلم والدين) في التاريخ الإسلامي كله. وكانت حصيلة ذلك كله حضارة إسلامية استمرت قروناً طويلة يعترف بها الغربيون وغير الغربيون.

---

[٣٤] انظر: موريس بوكاي. دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة. ط٤. دار المعارف. بيروت ١٩٧٧م. ص١٤٠-١٤١.

[٣٥] انظر: نفس المصدر. ص١٤٢.

٣ - الصراع بين السلطتين (الكنيسة والدولة):

لقد بدأ الصراع بين الكنيسة والدولة (الإمبراطورية) في القرن الحادي عشر. فاشتد النزاع وحمى وطيسه وانتصرت فيه البابوية أولاً حتى أن (هنري الرابع) ممثل الامبراطورية اضطر سنة ١٠٧٧م إلى أن يتقدم بخضوع نحو البلاط البابوي في قلعة (كانوسا) ولم يسمح له البابا بالدخول إلا بعد أن شفع له الرجال، فسمح له بالمثول بين يديه، فدخل الإمبراطور صاغراً حافياً لابساً الصوف وتاب على يديه فغفر له البابا زلته، وكانت الحرب بين البابوية والإمبراطورية بعد ذلك سجالاً حتى ضعفت البابوية وبقى الناس هذه المدة الطويلة يتنازعهم عاملان: ديني ودنيوي وبقوا يرزحون تحت نيران إمبراطوري وبابوي[٣٦].

- وبعد أن غزا الأسبان أمريكا في القرن السادس عشر، ارتكبوا جرائم مروعة، إذ كان أهالي البلاد يزجون في عمل المناجم ويموتون بالملايين. وفي المناطق الحارة يحل محلهم الزنوج الذين يستقدمهم الأسبان من أفريقيا حيث بدأت تجارة الرقيق الغربية الحديثة والتي استمرت ثلاثة قرون إذ بلغت أوجهاً في القرن الثامن عشر، وكان أعظم صوت لاستنكار هذه الأعمال هو صوت الأسقف (بارتولو ميو دولاس كاراس ١٤٧٤- ١٥٥٦) ابن اشبيليه، معاصر توماس مور ولوثر وغيرهم، حيث كشف تلك الجرائم وانتهى إلى الطعن بمبدأ الاستعمار، هذا الأسقف الكاثوليكي الذي لقب (أبى الهنود) هو أيضاً أب لسلالة فكرية مهمة في تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر: سلالة مناهضي الاستعمار[٣٧].

- ونتج عن سوء استعمال رجال الدين لسلطانهم الهائل أن استغلوه لأنفسهم ونفوذهم وجاههم، وبقيت أوربا تتسكع في دياجير الجهل والخرافة والانحطاط، وأصيبت المدنية بحكمهم ورهبانيتهم في صميمها[٣٨].

- ويلخص المطران (غريغور حداد) الصراع بين السلطة الكنسية والسلطة المدنية، فيقول: بأن السلطة الكنسية في البدء كانت:

* ضد حرية الضمير لكل إنسان لأنها أكثر اغلاطه عدوى.
* وضد الحرية الدينية، لأنه لا حرية للضلال بل للحق وحده.
* وضد الانتخاب العام، لأنه الكذب العام.
* وضد تحرية التفكير لأنه انتفاضة ضد الله.
* وضد المدارس الرسمية المفتوحة للجميع لأنها خطر على الدين[٣٩].

---

[٣٦] انظر: د. محمد التكريتي. نقد العلمانية. ص٢٩.

[٣٧] انظر: أرنست بلوخ. مقدمة الياس مرقص. نقد العلمانية. دار الحقيقة. بيروت ١٩٨٠م. ص١٨.

[٣٨] انظر: د. محمد التكريتي. نقد العلمانية. ص٢٩.

- وهكذا انحرفت الكنيسة عن مبادئ المسيحية السمحاء لتصبح خصماً للسلطة السياسية.

- ولكن الكنيسة بما آلت إليه من وصف المطران (غريغور حداد) جعلت المجتمع الغربي يفر من الدين. والحقيقة أنه لم يفر من الله وإنما فر من (الكاهن) ولم يهرب من الدين وإنما هرب من الكنيسة.

- فلم تكن المسيحية في يوم من الأيام تعالج مسائل الإنسان، بحيث تقوم عليها الحضارة أو تسير على أساسها دولة، ولكن كانت تحتوي على تعاليم المسيح الأخلاقية، ومبادئ دين التوحيد، وتدعو لهداية الناس وللإيمان بالله وترقية أخلاقهم ونشر الفضيلة فيما بينهم.

- وأما في الإسلام نجد دعوة التوحيد في الألوهية تستهدف المساواة بين الناس في الاعتبار الإنساني، وفي البقاء في المستوى الإنساني، وفي المشاركة في خصائص الإنسانية من الصواب والخطأ. فإنه ليس هناك مكان في جماعة المؤمنين، أو في المجتمع الإسلامي، إلى نزاع حول السلطة، على أساس: أن بعض المجموعات في المجتمع يتميز عن المجموعات الأخرى على أساس غير إنساني. فهذه مجموعة لها قداسة، ولقولها عصمة. وهذه مجموعة أو مجموعات أخرى ليست لها قداسة، وليست لأقوالها عصمة، كما هو تصوير مبعث النزاع بين الكنيسة والدولة في الفكر الأوربي[٤٠].

- ومن ناحية أخرى: يوم أن وجه الإسلام دعوته إلى أهل الكتاب بقوله: قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (آل عمران: ٦٤). فطلب إليهم الاتفاق على احتفاظ الإنسان بسيادته وكرامته، وذلك بألا يعبد الإنسان سوى الله وحده.. فلا يعبد الطبيعة وما فيها من كائنات. ولا يعبد إنساناً فرداً، أو ممثلاً لجماعة، كمجتمع، أو دولة، أو حزب.. يوم أن ناداهم على الاتفاق على هذا المبدأ، لم يكن مستأثراً وحده بالسلطة، كما لم يكن مهيناً للبشرية ولا مستذلاً للإنسان[٤١].

- إن دعوة عدم الشرك بالله، ودعوة عدم تأليه الطبيعة، ودعوة عدم خضوع الإنسان للإنسان الشخصي أو المعنوي - في تواضع العابد ومذلته - هي دعوة لإبعاد الإنسان عن مصدر المذلة، وللاحتفاظ بالمساواة في الاعتبار البشري - وإذا عبد

---

[٣٩] انظر: غريغور حداد. مقدمة كتاب من الفكر الحر إلى العلمنة. دار الطليعة. بيروت ١٩٨٦م. ص٣١.

[٤٠] انظر: د. محمد البهي. العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق. ص٣٤.

[٤١] انظر: نفس المرجع. ص٣٦، ٣٧.

الإنسان الله وحده فإنما يتقرب بعبادته إياه إلى محاكاة قيم عليا تصور صفاته تعالى، وهي صفات الكمال: في العلم، والخلق، والقدرة، والحياة، والتدبير، والإرادة، والغنى بالذات.. إلى آخر صفاته التي يتحدث عنها القرآن الكريم، ومن شأن محاكاة مثل هذه القيم العليا في ذات الإنسان العابد لله وحده.. تأكيد سموه الإنساني واعتباره البشري[٤٢].

وبتوجيه الدعوة إلى أهل الكتاب - على هذا النحو - ليكونوا على قدم المساواة مع المسلمين في المحافظة على البشرية من الإهانة والمذلة، وفي ممارسة حق الاعتبار الإنساني في غير خشية ولا خوف. لم يكن الإسلام إذن ذا نزعة انفرادية في تولي سلطة، ولا ذا ميل متطرف للقضاء على معارضة المعارضين، وبذلك يقضي القرآن في دعوته على نزعة الاستئثار بالسلطة لفريق من الناس دون فريق آخر، وهي تلك النزعة التي كانت الدافع إلى العلمانية في مرحلتها الثانية، وهي مرحلة اليسار المتطرف، وبعد ذلك: إذا لم يكن في الإسلام ازدواج في السلطة ولا ثنائية في شؤون الحياة. وإذا لم يكن الإسلام ذا نزعة استشارية، على نحو ما هو موجود في الفكر العلماني[٤٣].

- لم يعرف الإسلام سلطتين: إحداهما دينية، والأخرى زمنية أو دنيوية، ولم يعرف في تراث الإسلام دين لا سياسة فيه، ولا سياسة لا دين لها.

لقد كان الدين ممتزجاً بالحياة كلها، امتزج الروح بالجسم، فلا يوجد شيء منفصل اسمه الروح، ولا شيء منفصل اسمه الجسم، وكذلك كان الدين والعلم، أو الدين والدنيا، أو الدين والدولة في الإسلام[٤٤].

٢- مراعاة الإطار التاريخي (الزمان والمكان):

أن الأحكام في مسائل الدولة: تتطور مع الزمان والمكان، فهي تابعة للتطور الاجتماعي الذي يهدينا إليه العلم، وأن هذه الأحكام خاضعة للعلم المبني على العقل، فهي تابعة بالضرورة لما يكشفه العلم الاجتماعي من قوانين التطور.

- الأحكام الدنيوية تتطور، وقد تطورت بالفعل في عهد النبي ﷺ. وما نظرية الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم، والتحريم التدريجي لبعض الأشياء كالخمر، واختلاف المذاهب الفقهية، واختلاف أئمة كل مذهب؛ ما هي إلا أثراً من آثار هذا التطور الذي اقتضته المصلحة العامة والظروف. وإني أذكر على سبيل المثال، حادثة تشريعية

---

[٤٢] انظر: المرجع السابق. ص٣٧.

[٤٣] انظر: د. محمد البهي. العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق. ص٣٧، ٣٨.

[٤٤] انظر: د. يوسف القرضاوي. الإسلام والعلمانية. نقد العلمانية. ط١. دار الصحوة للنشر والتوزيع. القاهرة ١٩٨٧م. ص٥٢.

واحدة، يرى فيها كيف تطورت الأحكام تبعاً للمقتضيات الاجتماعية، والاقتصادية، وقد اخترتها من الحوادث التي وقعت في عهد النبي ﷺ، لتكون أبلغ في التدليل.

نعرف أن النبي ﷺ لما هاجر إلى المدينة كان معه عدد من المهاجرين، وجدوا أنفسهم في مدينة غريبة دون مأوى ودون مرتزق، فشرع النبي ﷺ نظراً لهذه الظروف الاقتصادية الاستثنائية - سنة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار. فكان لكل مهاجر أخ من الانصار يشترك معه في ماله. وفي بيته، وكان لهذه المؤاخاة من الأثر القانوني ما يجعل الأخوين يتوارثان - نظام الأخوة هذا يشبه من بعض الوجوه نظام التبني في بعض الشرائع الأجنبية - واستمر العمل به مدة من الزمن حتى أيسر المهاجرون بما غنموه في غزوة بدر، فتغيرت الظروف التي اقتضت التشريع الأول، ولذلك تطور التشريع نفسه، وأبطل النبي ﷺ، سنة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، واستقل كل بماله.

- فانظر كيف يتطور التشريع من عمل إلى إبطال، ومن خلق نسب قانوني إلى الرجوع إلى النسب الطبيعي، وذلك تمشياً مع التطور الاقتصادي، وتبعاً لما تقتضيه الظروف والمناسبات، وتلمساً للمصلحة في النظم التي تقرر. فالإسلام دين ودولة[٤٥].

فلقد كان في المدينة زعيم أمة ومنشئ دولة، ولا ضير أن نقول: إنه كان ملكاً إذا أريد بهذه اللفظة أنه كان رأس الحكومة الإسلامية، ووليا على المسلمين في أمور دنياهم، كما كان الهادي لهم في شئون دينهم. ولقد كان عليه الصلاة والسلام يجعل لأوامره ونواهيه - وهي لا شك من عند الله - جزاءً يصيب الناس في أنفسهم وأموالهم في هذه الدنيا، ولم يقتصر على مجرد الوعد والوعيد بالثواب والعقاب في الحياة الأخرى. فالدين والدولة في الإسلام شيئان مجتمعان، وأن التمييز بينهما مع ذلك له أهمية كبرى[٤٦].

شهادة غير المسلمين:

لقد كان الإسلام - ولا يزال كذلك - دين الحياة بحق: عنى بشؤون الدنيا كما عني بشؤون الدين.. وهذه الحقيقة أقر بها حتى غير المسلمين، بل أقر بها - كثير من الحاقدين من المبشرين والمستشرقين.

١- يقول الفيلسوف (جيبون): "القرآن مسلم به من حدود الاقيانوس إلى نهر الفانك بأنه الدستور الأساس ليس لأصول الدين فحسب - يعني بذلك التعبد في مفهوم

---

[٤٥] انظر: د. محمد عمارة. الإسلام والسياسة الرد على شبهات العلمانيين. مجمع البحوث الإسلامية ١٩٩٢م. ص١١٢، ١١٣.

[٤٦] انظر: المرجع السابق. ص١١٤.

الغرب - بل للأحكام الجنائية والمدنية. الشرائع التي عليها مدار حياة نظام المجتمع الإنساني وترتيب شؤونه "[٤٧].

٢- ويقول الفيلسوف الفرنسي (جاك جاك روسو) في كتابه (العقد الاجتماعي): " إن محمداً قد أقام نظاماً سياسياً بارعاً لحكم دولته، وقد كان ذلك سر قوة خلفائه الذين اتبعوه في حكم المسلمين ما داموا ملتزمين لنظامه "[٤٨].

٣- يقول (هاملتون جب): " ليس الإسلام ديناً بالمعنى المجرد الخالص، بل هو مجتمع بالغ تمام الكمال يقوم على أساس ديني، ويشمل كل مظاهر الحياة الإنسانية، لأن ظروفه في أول الأمر أدت إلى ربط السياسة بالدين. وقد أكدت هذه النزعة الأصلية. ماتلا ذلك من صوغ القانون الإسلامي والنظام الاجتماعي. والحق أن الإسلام ليس مجرد نظام من العقائد والعبادات: إنه أعظم من ذلك بكثير، فهو مدنية كاملة "[٤٩].

٤- يقول جورج روبير: " إن الإسلام ليس ديناً فحسب، إنه آخر الأديان التي ظهرت في التاريخ، وإنه - أيضاً - وبصفة خاصة مجتمع روحي واجتماعي، ونظام سياسي، وأسلوب للعيش. ولقد أعطى الإسلام للدنيا حقها، وللآخرة حقها، فلا نرهق الروح على حساب البدن، ولا نرهق البدن على حساب الروح: فالازدواج كامل بين الروحية والمادية في شخصية المسلم "[٥٠].

٥- يقول الأستاذ (ريتشارد هارتمان): " قلما تجد بين الأديان الكثيرة ديناً ينفذ إلى حياة معتنقيه كلها فردية كانت أم جماعية مثل الإسلام، ذلك أنه جمع السلطة الدينية في شكل الدولة السياسي، ووقي خطر التفرقة بين أمور الدين وأمور الدولة "[٥١].

٦- يقول الأستاذ (هورتن): " نجد في الإسلام اتحاد الدين والعلم، وهو الدين الوحيد الذي يوحد بينهما، ونجد فيه كيف أن الدين موضوع بدائرة العلم، ونرى وجهة الفيلسوف، ووجهة الفقيه سائرتين معاً باتحاد، ومتجاورتين كتفاً على كتف"[٥٢].

---

[٤٧] انظر: الأستاذ يوسف العظم. المنهزمون. ط٢. دار القلم. دمشق - بيروت ١٣٩٧. ص١٠٥-١٠٦.

[٤٨] انظر: المرجع نفسه. ص١٠٦.

[٤٩] انظر: أنور الجندي. الإسلام والدعوات الهدامة. ط١. دار الكتاب اللبناني. بيروت-لبنان ١٩٧٤م. صـ٢٩٠-٢٩١.

[٥٠] انظر: أنور الجندي. سقوط العلمانية. دار الكتاب اللبناني. مكتبة المدرسة. (د.ت).ص١٩٥.

[٥١] انظر: نفس المصدر.

[٥٢] انظر: نفس المصدر. ص١٩٧.

٧- يقول الأستاذ (أميل دومنجم): " الإسلام ليس عقيدة مادية تنطبق عليها المقاييس المادية، وليس عقيدة روحية لا صلة لها بالمادة ولا بالحياة، وإنما الإسلام عقيدة ترتكز على المادة والروح، والدنيا والآخرة، جسم وروح، ودولة ودين، وحياة وغيب. والإسلام عقيدة تقدمية لا بوصفه مؤيداً لنظريات الاجتماع الحديثة، بل لأنه يدفع الإنسان دوماً إلى الأمام"[٥٣].

خاتمة:

إن العلمانية ليس لها شكل محدد أو نظام واضح. فهناك علمانية الغرب، والعلمانية الاشتراكية والعلمانية الشيوعية. وكلها تتفق على أمر واحد وهو التنازل عن الدين بقيمه وأخلاقه واتباع أسس جديدة من وضع البشر تتغير مع الزمن في مزيد من التنازل عن الأخلاق، ومزيد من التنازل عن القيم في سبيل المادة التي لن تحقق إسعاداً للبشر في الدنيا والآخرة. فتحت تأثير العلمانية ضاع التسامح الديني وشاعت سيطرة الطائفية، لأن التحديث يعني أساساً الفصل بين من هم فوق ومن هم تحت[٥٤].

وكلما زاد تطور الدولة الحديثة حجماً وتقنية نقص نفوذها وضاعت سيادتها، وكلما نمت الطبقة العصرية ضاقت حجماً وزادت سلطة. فكلما نقص الطابع العصري الغربي للفئات الاجتماعية بعدت عن السلطة. وهذا وضع موضوعي يفرض نفسه من خلال ضرورات تسيير الدولة والإدارة والاقتصاد.. الخ. وثورة العامة مضطرة أن تخالف هويتها منذ اللحظة التي تنتصر فيها مصلحة السلطة لأصحابها. من هنا يسير النظام إلى تكوين سلطتين: سلطة الدولة وسلطة الدين. الأولى في القمة والثانية في القاعدة. والصراع بين هاتين السلطتين هو الذي يحدد الصراع ضد الأديان المختلفة أو الأقليات. وهكذا تحولت عندنا الأغلبية الاجتماعية إلى أقلية سياسية وهي مضطرة في هذا النظام السياسي العام أن تبقى أقلية، أي هامشية بالنسبة لاتخاذ القرار وممارسة السلطة الفعلية[٥٥].

- أما العلمانية في الغرب فنجد عندهم ما يلي: ألمانيا مثلاً - يحكمها الحزب الديمقراطي المسيحي، إيطاليا يحكمها الحزب الديمقراطي المسيحي، فرنسا يحكمها اليمنيون وهم الآن يطاردون الاشتراكيين، المحافظون في انجلترا حكمهم معروف، بل إن ملكة انجلترا هي رئيسة الكنيسة البروتستانتينية.

إذاً فهناك لا حرج في الغرب إذا قلت: الديمقراطي المسيحي، لكن لو قلت هنا الديمقراطي الإسلامي لا يصح مع أنهم يأتون بالعلمانية من ألمانيا وإيطاليا، وهم هناك يقولون: ديمقراطية مسيحية، وهنا لا.. لماذا؟.. شيء آخر يحتاج إلى وقفة. إسرائيل، من هو؟

---

[٥٣] انظر: نفس المصدر. ص١٩٦.

[٥٤] انظر: جلال المحمودي. الإسلام والدولة. دار الحياة. القاهرة ٢٠٠٧. ص١٠٢.

[٥٥] انظر: د. برهان غليون. المسألة الطائفية ومشكلة الأقليات. ط١. دار الطليعة. بيروت١٩٧٩م. ص٦٩.

فيلسوف؟ أديب؟ لا.. إنه نبي من الأنبياء، فإذا كان الإسرائيليون جعلوا نبياً من الأنبياء. عنوان دولتهم، وأقاموا الدولة الدينية. وهنا أريد من العلمانيين أن يتعلموا من إسرائيل، فاليهود الذين يحكمون فلسطين باسم نبي من الأنبياء احتقروا العلمانية ورفضوا ألا ينضووا إلا تحت مظلة الدين.. مع أنهم يغتصبون الأرض ويقتلون أصحابها[٥٦].

- إن الإسلام ينبه أبناءه إلى الخطر الذي يحيط بهم ويحذرهم من العدو الذي يظهر في ثياب الصديق فهو الخطر الذي يهدد وجودكم. ولو اختصر عمل الدين كما يقول العلمانيون على المسجد والعبادة ولم يتدخل في الشئون السياسية ولا شئون الحياة المختلفة. فإن ذلك يعني أننا نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض. والله تعالى يقول وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (المائدة: ٤٩). أي في جميع نواحي الحياة. أما أن تحكم غير الدين في الشئون المختلفة المتعلقة بالإنسان. فهذا في الواقع هو حكم الجاهلية، وحكم الجاهلية، معناه: هو الحكم بالهوى وحسب الميول. والحكم بالهوى وحسب الميول يختلف فيه الناس ولا يتفقون على شيء أبداً وليس لهم جامع إلا حكم الله لأنه حكم خالي من الهوى والغرض. وقد بين الله سبحانه وتعالى أنه لا يمكن أن تتحدد الناس وتتوحد كلمتهم إلا إذا صاروا على منهج الله عزوجل. يقول الله تعالى: وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ً(الأنعام:١٥٣)(٥٧). ورفضوا كل فكر وكل تيار يبعدهم عن المنهج الحق وهو الإسلام.

- والمجتمع الإسلامي لن يقبل أبداً العلمانية اللادينية إلا في ظل القهر والإجبار كما هو حادث في تركيا التي تتولى رئاسة الإركان في الجيش التركي حمايتها. وكما هو حادث في دول عربية والتي زاد فيها تسلط السلطة الحاكمة لإجبار الشعب على العلمانية. ثم تظهر من حين لآخر مقاومة أحياناً لها من بعض الناس ومظاهرات واعتراضات سليمة في أحيان أخرى، ويتم قهر ذلك بالشرطة والجيش وأجهزة الاستخبارات فضاعت الديمقراطية التي يبشر بها العلمانيون عندنا.

- وإذا تمسكت مجتمعاتنا بالعلمانية - فإن هذا يؤدي - إلى مزيد من الانفصال بين الجهاز الحاكم والشعب كل يتربص بالآخر. ويؤدي ذلك أيضاً إلى قيام الحكام في هذه الدول إلى الارتماء في أحضان الدول الغربية في استسلام لكسب الرضا والدعم وطلباً للحماية. وضاعت الوحدة الوطنية داخل الدولة الواحدة إلا من مظهرها القائم على القهر لا المشاركة. وضاع الأمن القومي بفك الارتباط مع الدول الإسلامية الذي

---

[٥٦] انظر: قطب عبدالحميد قطب. محاضرات الشيخ محمد الغزالي في إصلاح الفرد والمجتمع. دار البشير للنشر والتوزيع. القاهرة ١٩٨٩م. ص٨٧.

[٥٧] انظر: د. محمد العلمي. الخلق والإبداع بين الإلحاد والإيمان. ص١٦٩، ١٧٠.

كان قائماً على رباط وحدة الدين معها وأصبح أمنها مرتبطاً برضاء إسرائيل والغرب عنها وقبولها ما يرفضونه عليها[٥٨].

المصادر والمراجع:

١- أرنست بلوخ. مقدمة الياس مرقص. نقد العلمانية. دار الحقيقة. بيروت ١٩٨٠م.
٢- أنور الجندي. الإسلام والدعوات الهدامة. ط١. دار الكتاب اللبناني. بيروت - لبنان ١٩٧٤م.
٣- أنور الجندي. سقوط العلمانية. دار الكتاب اللبناني. مكتبة المدرسة. (د.ت).
٤- إبراهيم النعمة. المسلمون أما تحديات الغزو الفكري. مطبعة الزهراء الحديثة. ١٩٨٦م.
٥- تاريخ البشرية. المجلد السادس، ج٢. ترجمة: عثمان نويه وآخرين. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧١م.
٦- الحسن الندوي. ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين. دار القرآن الكريم. بيروت ١٩٧٨م.
٧- د. برهان غليون. المسألة الطائفية ومشكلة الأقليات. ط١. دار الطليعة. بيروت١٩٧٩م.
٨- ب داونز. كتب غيرت العالم. ترجمة: أمين سلامة. ١٩٧٧م.
٩- د. السيد أحمد محمد فرج. (علماني وعلمانية، تأصيل معجمي). مجلة (الحوار) عدد ٢. سنة ١٩٨٦م.
١٠- د. توفيق الطويل. قصة الصراع بين الدين والفلسفة. دار النهضة العربية ١٩٧٩م.
١١- جون هرمان راندال. تكوين العقل الحديث. ترجمة: د. جورج طعمة. ج١. دار الثقافة - بيروت ١٩٦٥م.
١٢- جلال المحمودي. الإسلام والدولة. دار الحياة. القاهرة ٢٠٠٧.
١٣- روجيه جارودي. ما يعد به الإسلام. ترجمة: قصي أتاسي، ميشيل واكيم. ط٢. دار الوثبة. دمشق١٩٨٣م.
١٤- زكريا فايد. العلمانية النشأة والأثر في الشرق والغرب. الزهراء للإعلام العربي. ط١. ١٩٨٨م.
١٥- د. شبلي العيسمي. العلمانية والدولة الدينية. دار الشؤون الثقافية العامة. بغداد ١٩٨٦م.

[٥٨] انظر: جلال المحمودي. الإسلام والدولة. ص١٠٥.

١٦- د. عزيز العظمة. العلمانية من منظور مختلف. ط١. مركز دراسات الوحدة المربية. بيروت ١٩٩٢م.
١٧- غريغور حداد. مقدمة كتاب من الفكر الحر إلى العلمنة. دار الطليعة. بيروت ١٩٨٦م.
١٨- د. فؤاد زكريا. الصحوة الإسلامية في ميزان العقل. ط١. دار الفكر للدراسات والنشر. القاهرة - باريس ١٩٨٩م .
١٩- قطب عبدالحميد قطب. محاضرات الشيخ محمد الغزالي في إصلاح الفرد والمجتمع. دار البشير للنشر والتوزيع. القاهرة ١٩٨٩م.
٢٠- محمد أسد. دفاع عن الإسلام. ترجمة: منير البعلبكي. ط٢. دار العلم للملايين. بيروت١٩٩٢م.
٢١- د. محمد أحمد العلمي. الخلق والإبداع بين الإلحاد والإيمان.
٢٢- د. محمد البهي. العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق. مجمع البحوث الإسلامية.
٢٣- د. محمد التكريتي. نقد العلمانية. ط١. دار المنطلق. دبي ١٩٩٤م.
٢٤- محمد الحسن. المذاهب والأفكار المعاصرة في التصور الإسلامي. ط٣. دار البشير للثقافة والعلوم الإسلامية ١٩٩٠م.
٢٥- د. محمد عمارة. الإسلام والسياسة الرد على شبهات العلمانيين. مجمع البحوث الإسلامية. ١٩٩٢م.
٢٦- محمد قطب. مذاهب فكرية معاصرة. دار الشروق. ط٦. ١٩٩٢م.
٢٧- موريس بوكاي. دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة. ط٤. دار المعارف. بيروت ١٩٧٧م.
٢٨- د. مي سمير عبده متولي. العلمانية في الفكر العربي والإسلامي المعاصر. المكتب العربي للمعارف. ط١. القاهرة ٢٠١٣م.
٢٩- د. محمد مصطفى الشناوي، د. خالد إبراهيم حسب الله. المذاهب المادية جذورها وتطورها دراسة نقدية. ١٩٩٧م.
٣٠- الأستاذ يوسف العظم. المنهزمون. ط٢. دار القلم. دمشق - بيروت ١٣٩٧.
٣١- د.يوسف القرضاوي. الإسلام والعلمانية. نقد العلمانية. ط١. دار الصحوة للنشر والتوزيع. القاهرة ١٩٨٧م.